مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة

العدد الثامن
1991 م.

يزيد بن حاتم
وأهم أعماله

الأستاذ عبد الجواد الصادق الشيباني
جامعة ناصر

يُعد يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة من أبرز قادة الدولة العباسية، ولا يعود ذلك إلى انتسابه للأسرة المهلبية التي لعبت دوراً بارزاً في الذَّوْدِ عن حياض الأمة العربية الإسلامية ووحدتها في عهدها الأموي فحسب، بل أيضاً إلى انجازاته الحضارية ومواهبه السياسية وما خلفه من الاعجاب والأثر الحسن في نفوس معاصريه وفي نفوس من أتى بعده، وبفضل ما قام به من جلائل الأعمال لنهضة الأمة العربية الإسلامية وتقدمها ابان فترة ولايته على افريقيا. كان يزيد بن حاتم من خاصة الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، يدخل عليه دون استئذان وقد ولّاهُ عدة ولايات قبل ولايته افريقيا منها ارمينيا والسند ومصر وأذربيجان. قال يزيد بن حاتم: (لما ولاني المنصور مصر دخلت عليه، وكنت لا أحجب عنه، فقال لي: يا أبا خالد بادر هذا النيل قبل خروج الرايات الصفر وأصحاب الدواب البتر)[1]. وكان ذلك سنة أربع وأربعين ومائة. فبقي فيها سبع سنين وأربعة أشهر،

(1) القيرواني، الرقيق: تاريخ افريقيا والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي، الناشر رقيق السقطي تونس، ص 150-151.

قام خلالها بتثبيت دعائم الدولة العباسية في مصر كما قام بغزو الحبشة وحج يزيد في سنة (147-720) واستخلف على ولاية مصر عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية ابن خديج، كما ضمت إليه برقة، وأمر عليها عبد السلام بن عبد الله بن هبيرة.

وفي سنة (152-769) ورد كتاب أبي جعفر المنصور بعزله عن ولاية مصر. وليس لدينا معلومات عن المدة التي تلت عزله عن مصر حتى توليته افريقيا.

وفي هذه الآونة كانت أحوال افريقيا مضطربة، والتناحر المذهبي على أشده. ولم يستطع الوالي العباسي عمر بن حفص المهلبي أنْ يقرَّ الأمور. بل ان الجيش العباسي بقي في نهاية الأمر في القيروان محاصراً من قبل الثوار، (حتى ضاق أمرهم وأكلوا دوابهم وكلابهم وسنانيرهم وماتوا جوعاً، وانتهى الملح عندهم أوقية بدرهم)[2].

عندما سمع ذلك أبو جعفر المنصور أعد جيشاً جراراً اختلفت الروايات في تحديد عدده فقيل كان ستين ألفاً[3] وقيل انه كان حوالي مائة ألف وخمسين ألف جندي[4] وقيل كان عدده خمسين ألفاً[5].

ومهما كان العدد فإن جيش يزيد بن حاتم كان كثيراً وكان جيشاً مدرباً كثير العدة والسلاح وهو يعتبر نخبة جيوش أبي جعفر المنصور وزهرة شبابهم.

قال يزيد بن حاتم: (لما ولاني المغرب انتهى في تشييعي إلى فلسطين فحسدني أقوام منهم شبيب بن شيبة بن عقال، ورفع إليه (يقصد أبا جعفر المنصور)، شيبة بن عقال كتاباً لم يأل فيه من الحمل عليّ والذكر لمساويّ وتخويفه

---

(2) الكندي، محمد بن يوسف: ولاة مصر، تحقيق حسين نصار، دار صادر ـ بيروت، ص 137، ابن عذارى أبو العباس أحمد: البيان المغرب تحقيق ج. س. كولان وليفي بروفنسال، ج 1 دار الثقافة ـ بيروت ـ ص 67.

(3) الرقيق القيرواني: نفس المصدر، ص 145.

(4) ديوز، محمد علي: تاريخ المغرب الكبير، ج 4، الطبعة الأولى 1962م، دار احياء الكتب العربية، ص 82.

(5) ابن أبي دينار، أبي عبد الله محمد: المؤنس في أخبار افريقيا وتونس، تحقيق محمد شمام، المكتبة العتيقة، الطبعة الثالثة، ص 46.

الغوائل، قال: فأرسل إليّ فحضرت، فرمى إلي بالكتاب فقرأته وذهبت لا أتكلم) فقال لي أبو جعفر المنصور كفيت مؤونة الاحتجاج[6].

وهكذا زحف يزيد بن حاتم من فلسطين إلى افريقيا ولقد استغرق مسيره حوالي عشرة أشهر حدثت خلالها في افريقيا حروب أسفرت عن مقتل الوالي العباسي عمرو بن حفص ودخول أبي حاتم يعقوب بن حبيب القيروان حيث أقر الأمور فيها ولكنه عندما سمع بمقدم يزيد بن حاتم ووصوله إلى سرت خف مسرعاً لمقابلته. حيث عين نائباً عنه في القيروان وهو عبد العزيز بن السمح المعافري، وسار أبو حاتم بمعظم جيشه إلى طرابلس لملاقاة يزيد بن حاتم قبل أن يصل إلى افريقيا حيث تمركز بقواته في جبل نفوسة جاعلاً هذا الجبل خلف ظهره لكي يحتمي به في حال انهزامه أمام جيش الخلافة العباسية[7]. وعندما تمَّ اللقاء بينهما انهزمت جموع أبي حاتم يعقوب وتراجع إلى جبل نفوسة، ولكن قوات الخلافة العباسية بقيادة يزيد بن حاتم تبعته وقاتلته حتى هزمته هزيمة ساحقة انتهت بمقتله مع كثير من أصحابه كان ذلك سنة (155 - 772 م)[8].

بعد هذه الأحداث خضعت افريقيا لسيادة الدولة العباسية وأصبح يزيد بن حاتم هو سيد الموقف في البلاد دون منازع حيث توجه إلى القيروان. وعندما دخلها لم يتعرض لأهلها بسوء ولم يرق فيها دماء الأبرياء بل استقبلوه بشيء من الاهتمام والحرص الشديد عاقدين الأمل على حسن نواياه وكرم أخلاقه فعين العمال على المناطق وقضى على طالبي الفتنة والاضطراب.

وهكذا ظهرت ملامح الخير فيه كما ظهرت ملامح شجاعته وبطولته الحربية وحنكته السياسية تلك السياسة التي كانت وليدة العديد من الولايات المختلفة التي كان قد تولاها من قبل، فكانت مزيجاً مختلفاً من ثقافات وحضارات متباعدة ومتنوعة فبعضها من الهند والبعض الآخر من اذربيجان وثالثة من ارمينيا ورابعة من

---

(6) الرقيق القيرواني: نفس المصدر، ص 151.

(7) الرقيق القيرواني: نفس المصدر رقم 159. الناصري، أبو العباس محمد بن خالد: الاستقصاء لاخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر ومحمد الناصري، ج 1 دار الكتاب 1954، ص 132.

(8) ابن عذارى: نفس المصدر ص 79.

مصر وخامسة من بغداد عاصمة الحضارة العربية الإسلامية آنذاك[9].

وهكذا نجد المطاف ينتهي بيزيد أخيراً إلى افريقيا فنهج نهجاً سليماً لم ينهجه أحد من أسلافه من قبل. فاتبع سياسة التسامح واللين وحب الرعية والابتعاد عن ظلمهم وارهاقهم بجمع الأموال من وجه حلال أو حرام، وخصال أخرى حميدة منها الكرم والعفة والنزاهة، وبهذا النهج هدأت احوال افريقيا وذهب الفزع والاضطراب واطمأنت النفوس الخائفة إلى هذا الوالي المصلح الجديد[10]. . الذي لم تألف مثله افريقيا منذ زمن طويل. قد مكنه هذا من أن يبدأ بناء صرح حضارة زاهية لم يقف ضد إتمامها على أحسن ما يرام إلا انقضاء الأجل الذي لا بُدَّ منه.

ومن مظاهر تلك المعالم الحضارية السامية أنه بدأ في مجال البناء والتشييد بتوسيع جامع عقبة بن نافع الذي صار لا يسع المصلين مما تتطلب ادخال زيادات فيه، كما جمله بما يتناسب مع مكانة مدينة القيروان باعتبارها عاصمة افريقيا، كما اهتم بتخطيط المدن في ولايته بداية من القيروان نفسها محاولاً جعلها في مصاف المدن الكبرى، حيث جعل لكل صناعة سوقاً خاصاً بها كما أَبْعَدَ بعض الصناعات التي قد تضر مخلفاتها غيرها من الصناعات الأخرى وسرى هذا النظام في جميع المدن الافريقية أسوة بالعاصمة[11]، كما اعتنى بالفلاحة وتدبير شؤونها لما رآه من أهمية افريقيا في هذا الجانب الاقتصادي، فاهتم بطرق الري وتحسين طرق الزراعة وتعدد الغلات الزراعية وتنوعها محاولاً بذلك رسم سياسة الاكتفاء الذاتي لولايته من البقول والحبوب مثل القمح والشعير والخضروات والفواكه[12].

كما اهتم بتربية الأغنام اهتماماً كبيراً وحين استغل أحد أبنائه المراعي الخصبة دون سائر الناس ظهر عدله وبعده حين استدعى ابنه صاحب الغنم، قائلاً

---

(9) ديوز، محمد علي: نفس المرجع، ص 90.

(10) ابن الأثير، على بن أحمد الكريم: الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي/ بيروت ج 5، الطبعة الثالثة، 1980، ص 158.

(11) ابن عذارى: نفس المصدر، 78. ابن أبي دينار: نفس المصدر، ص 47.

(12) ابن عذارى: نفس المصدر ص 82.

له: لمن هذه الغنم؟ فقال له: هذه الغنم لي أيها الأمير تأكل لحمها وتشرب لبنها فقال: ما الفرق بينك وبين الغنامين، فأمر بذبح الغنم فأخذتها العامة في حينها[13].

كانت ليزيد ضيعة زرعت فولاً فكان محصولها جيداً فسأله أحد وكلائه عن بيع المحصول فقال له يزيد: ويحك «أتريد أن أعير بالبصرة فيقال يزيد بن حاتم باقلاني»[14] أمثلي يبيع الفول، «ثم أمر بأن يباع للناس»[15].

واهتم اهتماماً كبيراً بالعلم والتعليم حيث عامل معاملة خاصة العلماء والفقهاء وبهذه السياسة اقبلت افريقيا والمغرب على نهضة علمية ثقافية كبرى لم تشهدها من قبل حيث فتحت المدارس في كل المدن والقرى وصارت المساجد للتخصص في علوم الشريعة واللغة العربية وآدابها. وقد ذكر الدباغ في معالم الإيمان عدة علماء وفقهاء تعلموا ونبغوا في عهد يزيد بن حاتم منهم على سبيل المثال لا الحصر البهلول بن راشد وعبد الله بن فروخ وأسد بن الفرات وسحنون بن سعيد ومنهم ايضاً عبد الرحمن بن انعم المعارفي الذي تُوفي سنة إحدى وستين ومائة وصلى عليه يزيد بن حاتم، ولقد تعجب يزيد من جنازة ابن انعم لكثرة المصلين عليها[16].

وعلى ذكر العلماء والفقهاء الذين ازدان بهم عهد يزيد بن حاتم كان يزيد يتحرى كثيراً في من يوليهم منصب القضاء يذكر أبو العرب صاحب الطبقات أن يزيد بن حاتم بعث إلى والي تونس يطلب منه أن يبعث إليه برجل اشتهر بالزهد والعفة وإقامة الحق والعدل وهو أبو كريب عبد الرحمن بن كريب وبُعث به إليه، فلما وصل عنده جعل يزيد يكلمه وأبو كريب ساكت لا يرد عليه. مما دفع ببعض من

---

(13) الرقيق القيرواني: نفس المصدر ص 158.

(14) ابن عذارى نفس المصدر ص 81، 82.

(15) ابن عذارى: نفس المصدر ص 82.

(16) الدباغ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق إبراهيم شبوخ، ج 1، مكتبة الخانجي بمصر سنة 1968 م، الطبعة الثانية ص 234 - 237. القيرواني، أبو العرب محمد بن حمد: طبقات علماء افريقيا وتونس تحقيق علي الشابي وزميله، الدار التونسية للنشر، 1968م ص 103، 104.

حاضري مجلس يزيد أن يكلمهم بأن يرد على الوالي، ولكن يزيد تدخل في الأمر وطلب خلو مجلسه حيث كلم القاضي قائلاً له: ما أردت إلا أن أجعلك حسنة بيني وبين الله يوم القيامة. عندها قبل أبو كريب منصب القضاء.

وفي أحد الأيام أقبل رجل ادعى على يزيد بن حاتم بمظلمة واحتكم إلى القاضي فاستدعى القاضي الأمير يزيد إلى مجلس القضاء وبعد استجواب الخصمين تبين أن الحق على الأمير لأحد رعيته. فنهض يزيد بن حاتم من مجلس القضاء وهو يقول: «الحمد لله الذي لم أمت حتى جعلت فيما بيني وبين الله تبارك وتعالى من يحكم في عباده بالحق» فقال أبو كريب: (وأنا أقول الحمد لله الذي لم أمت حتى رأيت أميراً يذكر الله عز وجل بالقضاء بالحق عليه)[17].

كما كان يزيد يراقب القضاة في أحكامهم وسيرتهم الشخصية لأنها تعكس هيبة الولاية وترفع أو تحط مكانتها بين الناس حيث طلب من القاضي يزيد بن الطفيل بأن لا يقوم بأي عمل آخر خلاف منصبه إلا أن هذا القاضي أصر على أن يزاول مهنة أخرى غير مهنة القضاء لأنه كان يرى ذلك لا ينقص من مكانته شيئاً ولكن يزيد كان خلاف ذلك، وعلى أثرها عزله من منصب القضاء[18].

واستمر الأمن والهدوء إلى أن كانت سنة (164-781) حيث بلغ يزيد بن حاتم انتفاض ورفجومة بزعامة أيوب الهواري[19] وقيل بزعامة رجل من ورفجومة يقال له أبو زرجونة الورفجومي[20].

فسير إليه يزيد بن حاتم جيشاً جعل قيادته إلى كل من يزيد بن مجزأة المهلبي والمخارق بن غفار الطائي، غير أن ورفجومة تمكنت من هزيمة يزيد بن مجزأة المهلبي ومن قتل المخارق بن غفار الطائي، مما دفع يزيد بن حاتم إلى اعداد جيش آخر أسند قيادته إلى العلاء بن سعيد المهلبي كما أمر ابنه المهلب وهو وال

---

(17) القيرواني أبو العرب محمد بن أحمد: نفس المصدر ص 217-218.

(18) القيرواني أبو العرب محمد بن أحمد: نفس المصدر ص 106.

(19) ابن الأثير: نفس المصدر ص 33.

(20) الرقيق القيرواني: نفس المصدر ص 161.

على طينة وكتامة بالتوجه إلى مساعدة العلاء حيث استطاعا القضاء على قوات ورفجومة. وبعد هذه الحادثة عادت إلى ولاية أفريقية الطمأنينة والهدوء والاستقرار[21]. حيث ظهرت نهضة أدبية كبرى تمثلت في مجالس الشعر والشعراء وصار يزيد بن حاتم مقصد الكثير منهم طلباً لصلته وعظيم إحسانه منهم ربيعة بن ثابت الرقي الذي مدح يزيد بن حاتم بعدة قصائد منها هذه القصيدة التي يمدحه فيها ويهجو يزيد بن أسيد السلمي فيها أيضاً:

حلفت يميناً غير ذي مثنوية ... يمين امرىء آلى وليس بآثم
لشتان ما بين اليزيدين في النَّدَى ... يزيد سليم والأغر بن حاتم
فلا يحسب التمتام أني هجوتُهُ ... ولكنني فضلت أهل المكارم
أبا خالد أنت المنوه باسمُه ... إذا نزلت بالناس إحدى العظائم
كفيت أمير الناس كل عظيمة ... وكنت من الإسلام خير مزاحم

كذلك مدحه ابن المولى وهو محمد بن عبد الله بن مسلم بعدة قصائد منها[22]:

يا واحد العرب الذي ... أضحى وليس له نظير
لو كان مثلك ثانياً ... ما كان في الدنيا فقير

ومنها قول الشاعر مروان بن أبي حفص حيث أنشده هذين البيتين[23]:

إليك قصرنا النصف من صلواتنا ... مسيرة شهر ثم شهر نواصل
فلا نحن نخشى أن يخيب رجاؤنا ... لديك ولكن أهنأ البر عاجله

قيل إن يزيد بن حاتم أمر للجُنْد بمرتباتهم وقال: من أحبني يعطي هذا الشاعر درهماً فحصل حوالي (50) خمسين ألف درهم وزاده من عنده خمسين ألف فرجع الشاعر بمائة ألف درهم كما كان يزيد بن حاتم يقول الشعر: حيث قال[24]:

---

(21) ابن الأثير: نفس المصدر ص 33، 34.
(22) الرقيق القيرواني: نفس المصدر ص 156.
(23) ابن أبي دينار: نفس المصدر ص 47.
(24) ابن عذارى: نفس المصدر ص 81.

ما يألف الدرهم المضروب خرقتنا إلا لماماً يسيراً ثم ينطلق.
يمر مراً عليها وهي تلفظه إني امرؤ لم يحالف خرقتي الورق

ولكي يستمر يزيد بن حاتم في بنائه الحضاري وازدهار ولايته واستمرار الهدوء والأمن والرخاء هادن أغلب دول الغرب الأوسط والأقصى وعلى الأخص الدولة الرستمية. وبهذه السياسة التي انتهجها رضيت الدولة العباسية ولم تفكر في عزله طيلة عهد المنصور والهادي والمهدي وفترة من خلافة هارون الرشيد حيث قضى نحبه في رمضان سنة (170-787).

المصادر والمراجع

1 ـ ابن عذارى، أبو العباس أحمد: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. تحقيق ج. س. كولان واليفي برفنسال، ج 1 دار الثقافة ـ بيروت.

2 ـ ابن أبي دينار، أبي عبد الله محمد: المؤنس في أخبار افريقيا وتونس. تحقيق محمد شمام، المكتبة العتيقة، الطبعة الثالثة.

3 ـ ابن الأثير، علي بن أحمد بن أبي الكريم: الكامل في التاريخ، ج 5، دار الكتاب العربي بيروت، الطبعة الثالثة 1980 م.

4 ـ الدباغ، أبو زيد عبد الرحمن: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان. تحقيق إبراهيم شيوخ ج 1، مكتبة الخانجي بمصر، الطبعة الثانية 1968 م.

5 ـ الناصري، أبو العباس محمد بن خالد: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر ومحمد الناصري، ج 1، دار الكتاب 1954 م.

6 ـ القيرواني، الرقيق: تاريخ افريقيا والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي، الناشر رفيق السقطي، تونس.

7 ـ القيرواني، أبو العرب محمد بن أحمد: طبقات علماء افريقيا وتونس، تحقيق علي الشابي وزميله. الدار التونسية للنشر 1968 م.

8 ـ ديوز، محمد علي: تاريخ المغرب الكبير، ج 3، الطبعة الأولى طبع دار احياء الكتب العربية، 1968م.